

صدى بئر المورم



قاسم عبد الرحمن الإدريسي

صدى بئر المورم

رواية رعب قصيرة مصوّرة بأسلوب مانجا شبه ملوّن

عن الكاتب

قاسم عبد الرحمن الإدريسي

قاسم عبد الرحمن الإدريسي، كاتب وشاعر يمّني، من مواليد عام 2002. ينتمي إلى قرية «الخربة» في منطقة شُكع، مديرية الحصين بمحافظة الضالع.

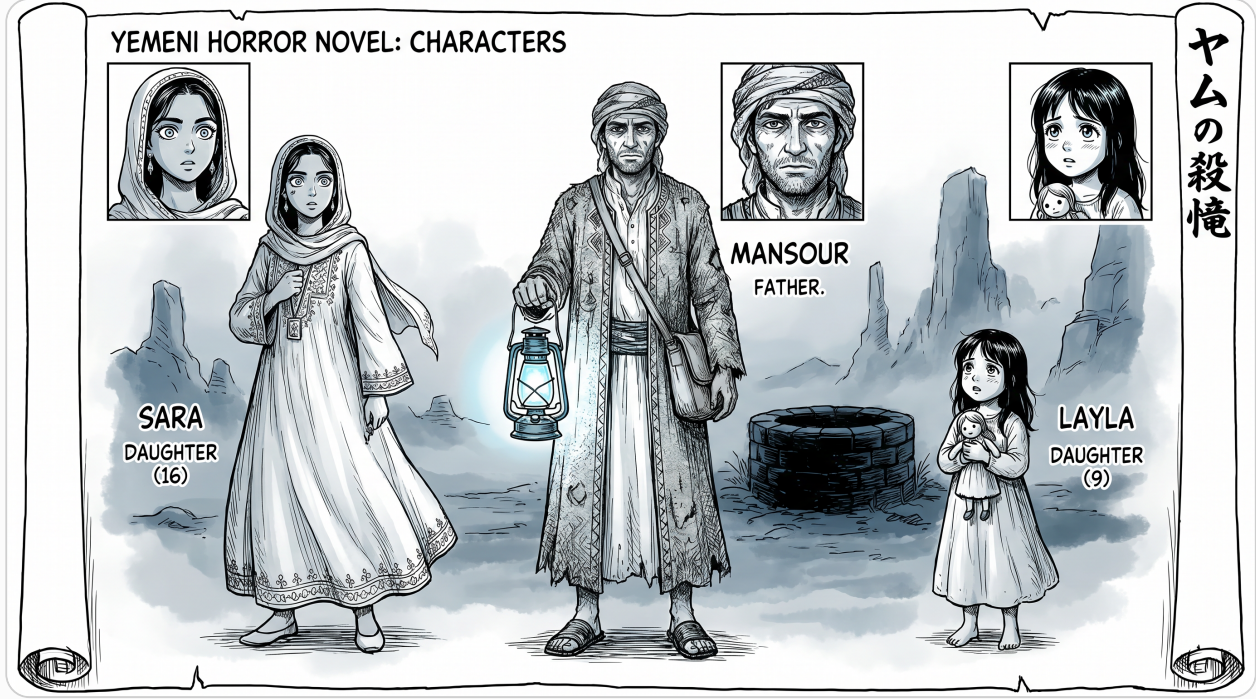
بدأت رحلته مع الكتابة بدافع الشغف بنقل حكايات الأرض وتراثها، وسعى من خلال كلماته وقصائده إلى توثيق ما يراه ويشعر به في بيئته بأسلوب بسيط وقريب من القارئ. وفي أعماله يلتقي الوجدان بالمكان، وتتشابك الذاكرة مع الخيال، لتولد حكايات تحمل رائحة التراب وصوت الناس وأثر الموروث.

تمثل «صدى بئر المورم» تجربة أدبية يحاول من خلالها دمج الخيال بالواقع، وصياغة رعبٍ ينبت من البيئة نفسها، لا من الظلام وحده. وهي محاولة لالتقاط ذلك الحد الفاصل بين الأسطورة والحقيقة، بين ما يُروى في المجالس، وما يظل ساكنًا في القلب بعد انتهاء الحكاية.

«آمل أن تصل رسالتي إلى كل من يقرأ لي؛ وأن يجد في كلماتي شيئًا من ذاكرته، أو خوفه، أو دهشته الأولى أمام الحكايات القديمة.»

ملاح الشخصيات

تصوّر بصري للشخصيات الرئيسية وأجواء الوادي قبل الدخول إلى فصول الرواية.



منصور، سارة، وليلى — كما تبدو ملامحهم في النسخة المصورة.

منصور: أبّ قاسٍ في ظاهره، مكسور في أعماقه، يقوده الحب إلى مواجهة ما كانت القرية كلها تهرب حتى من اسمه.

سارة: الابنة الكبرى، جرأتها تسبق خوفها بخطوة واحدة، لكنها حين تنظر طويلاً في السواد تشعر أن السواد يرد إليها النظر.

ليلى: الطفلة الأصغر، قلبها نقي كالماء، ولذلك كانت أسرع من غيرها إلى سماع الهمس الآتي من الأماكن المحرّمة.

الترقيم يبدأ من هذه النسخة المجمّعة، مع الحفاظ على ترتيب الغلاف ثم صفحة الكاتب مباشرة.

الفصل الأول: النذير في وادي سُكع



حين يسبق الصمْتُ السقوط، تعرف الأرض أن شيئاً غير بشريٍّ قد استيقظ.

لان وادي سُكع في ذلك المساء يبدو كلوحةٍ رسمها كائن يعشق اختبار قلوب البشر. لم يكن الضباب مجرد بخارٍ مائي يصعد من الأرض الباردة، بل غلالة كثيفة تمشي بين الأشجار ببطءٍ مريب، كأنها تعرف الطريق أكثر من أهل الوادي. حتى الصخور البركانية السوداء التي اعتاد الناس رؤيتها بدت كوجوهٍ مطفأة، تحدّق في المارّين من غير رمش.

في وسط الوادي، ارتفعت بئر المورم كجرّ قديم لم يندمل. كانت فوهتها محاطة بحجارة سوداء لامعة، لا يثبت عليها نور القمر إلا لحظةً ثم ينكسر، كأن البئر ترفض الضوء كما ترفض الاعتراف بما تخفيه في أعماقها. حكى الشيوخ أنها أقدم من ذاكرة القرية، وأن كل بيتٍ في سُكع يعرف عنها حكاية، لكن أحداً لا يعرف أي الحكايات هي الأصدق.

سارت سارة أمام أختها الصغرى ليلي بخطوات مترددة، بينما كانت تحمل حزمةً صغيرة من الحطب الجاف. قالت ليلي وهي تشد طرف ثوب أختها: «أختي... هل سنمر من عند البئر فعلاً؟» لم تلتفت

سارة مباشرة، بل حدقت في الضباب وقالت بصوتٍ حاولت أن تجعله مطمئنًا: «فقط من الجهة الأخرى. لن نقرب. سنعود قبل أن يلاحظ أبي.»

لكن اسم الأب، منصور، لم يكن يمر في حديثهما إلا ومعه التحذير نفسه. كان يقول دائمًا: «المورم لا يروي العطش يا بناتي... المورم يعلم الناس كيف يخافون من الماء.» وكان حين يقولها لا يرفع صوته، بل يخفضه، وذلك ما كان يخيف سارة أكثر من أي صراخ.

قبل أن تقتربا من حافة الوادي، ماتت أصوات الصراخ فجأة. توقفت الريح. وسكن الهواء حتى شعرت سارة أن العالم صار صورة معلّقة لا تتحرك. رفعت رأسها، فرأت الضباب يتجمع قرب البئر على شكل دوائر متداخلة، ثم ينفث في المنتصف كما لو أن شيئًا يتنفس من الداخل.

همست ليلي: «سمعتِ هذا؟»

توقفت سارة. «أي شيء؟»

ردت ليلي وعيناها مثبتتان على السواد: «كأن أحدًا يناديني باسمي... من هناك.»

قالت سارة بسرعة: «لا تنظري. تعالي.» لكنها حين مدت يدها لتسحب أختها، أحست ببرودة جارحة تسري في أصابعها. كانت الأرض تحت قدميها رخوة على غير عاداتها، كأن طينًا خفيًا تشكل من العدم. خطت خطوة واحدة إلى الخلف، فانزلقت قدمها. لم تكن عثرة عادية؛ كان هناك شدٌّ واضح، عنيف، صامت، يجذبها نحو البئر كما تجذب الهاوية حجرًا فقد توازنه.

صرخت ليلي والتصقت بها بكل قوتها. «سارة!»

ردت سارة وهي تحفر أصابعها في التراب: «لا تتركيني!»

لكن الوزن صار مضاعفًا. شيء ما تحت الأرض أو تحت الماء أو تحت الزمن نفسه كان يجرحهما معًا. رأت سارة فوهة البئر تكبر أمامها، ورأت الضوء الأبيض الخافت في الداخل ينبض مرةً بعد مرة مثل قلبٍ بارد. وفي اللحظة التي وصلت فيها أطراف أصابعها إلى آخر حجرٍ على الحافة، سمعت همسًا واضحًا قرب أذنها، همسًا ليس من ليلي ولا من بشر: «وصلتما أخيرًا...»

سقطتا.

لم تكن الصرخة التي خرجت من حنجرتيهما شبيهة بصرخة بشرية. كانت حادة، طويلة، ثم فجأة انكسرت قبل أن تبلغ الهواء، كأن جدران البئر ابتلعتهما وأكلت صداها قبل أن يصل إلى السماء. ثم عاد الصمت. صمّت أثقل من القبور.

وفي البيت البعيد، حيث كان منصور يعلّق مصباحه قرب الباب، توقفت عقارب الساعة المعلقة على الجدار عند لحظةٍ لا معنى لها. نظر إليها طويلاً. شعر بشيءٍ بارداً يمر خلف ظهره. ولم يعرف بعد أن الخوف قد خرج لتوه من البئر، وبدأ يتسلل إلى الوادي مثل مرضٍ لا دواء له.

الفصل الثاني: هواجس منصور والبيت المسكون



حين يعود الأب إلى البيت ولا يجد ضحكة ابنتيه، يبدأ الظلام في تعلّم أسماء الغرف.

عاد منصور عند الغروب، واعتاد كعادته أن ينادي قبل أن يدخل: «سارة... ليلي... افتح الباب». لكنه وجد الباب مواربًا، والبيت ساكنًا على نحوٍ يثير الغثيان. لا صوت لأقدامٍ صغيرة، لا رائحة خبز، لا شجار خافت بين أختين. فقط برْدٌ غريب كان ينساب من الداخل كما لو أن البيت قضى نهاره مدفونًا تحت الأرض.

دخل بخطوات سريعة. وضع حمله جانبًا، وتفقد الغرف واحدةً تلو الأخرى. الأغطية في مكانها، الأواني كما هي، والنافذة الشرقية مفتوحة قليلًا رغم أنه أغلقها صباحًا بيده. مرر أصابعه على الخشب فوجد قطرات ماء صغيرة، باردة على نحوٍ لا يليق بليلةٍ لم يبدأ مطرها بعد.

تمتم: «أين ذهبتما؟»

لم يجبه أحد. لكن شيئًا في قلبه أجابه. تلك الطمأنينة الكاذبة التي يلقنها المرء لنفسه في البداية لم تعش طويلًا. مع مرور الوقت تحولت إلى قلق، ثم إلى خوف، ثم إلى يقين أسود بأن ما حدث ليس تأخرًا عابرًا.

حمل مصباحه، ومضى خارج البيت. كان الوادي في تلك الساعة أشبه بجسدٍ هائل نائم بعينٍ مفتوحة. كل خطوة كان يسمع معها طقطقة الحصى تحت قدميه أوضح من المعتاد، وكأن الصمت من حوله يضخم الأصوات ليسخر منه. وكلما اقترب من بئر المورم، خفت ضوء المصباح، لا لأنه ينطفئ، بل لأنه بدا صغيرًا بشكل مهين أمام ذلك السواد.

وقف عند الحافة. لم ينادِ في البداية. فقط رفع المصباح ومدّه إلى الداخل.

لم يرَ ماءً صافياً. رأى كتلةً من العتمة الكثيفة تتحرك ببطء، وكأن قاع البئر ليس أرضًا ولا ماء، بل جلدٌ حيٌّ يتموّج.

ثم ظهرت.

وجها سارة ولى ارتفعاً من القاع كزهرتين ميتين فوق ماءٍ راكد. كانت ملامحهما كما هي، لكن العيون... العيون لم تكن لبنتيه. كانت زجاجية، ساكنة، تعكس نور المصباح من غير حياة. فتح منصور فمه، لكنه لم يستطع الصراخ.

وجاءه الصوت من الداخل، لا عبر الهواء، بل من مكانٍ ما خلف عينيه: «يا أبي... الماء هنا دافئ جدًا.»

تراجع خطوة حتى كاد يسقط. «سارة؟»

ثم صوتٌ آخر، أخف، أعرف إلى قلبه، وأشد قسوة عليه: «لا تبكِ يا أبي... نحن لسنا وحدنا هنا.»

أغلق المصباح للحظة من شدة الرعب. ولما أعاد فتحه، لم يرَ شيئًا سوى عتمة البئر ونقطة الضوء البارد في قاعها.

ركض منصور إلى القرية وكأنه يهرب من داخل جلده. طرق أبواب الرجال واحدًا تلو الآخر. قال لهم إن البئر أخذت لبنتيه، وإنهما ما زالتا هناك، وإن شيئًا يتكلم بصوتهما. لكن الوجوه التي خرجت لم تكن وجوه تعاطف، بل وجوه ذعر مكتوم. بعضهم أنزل نظره إلى الأرض. بعضهم أغلق الباب ببطء. والعجوز سالم متم من وراء لحيته البيضاء: «إذا نادتاكِ من البئر، فلا تجبهما. ما يعود من هناك ليس ابنتك... بل الشيء الذي حفظ صوتها.»

عاد منصور وحده. ومنذ أن وطئت قدماه عتبة البيت، عرف أن البيت لم يعد بيته كما كان.

في منتصف الليل، سمع وقع قدمين صغيرتين في الممر. لم يكن صوتًا متخيلاً؛ كان إيقاعًا واضحًا، خفيًا، مترددًا، كأن طفلتين تحاولان عدم إيقاظ أبيهما. نهض من فراشه وأمسك المصباح. فتح الباب، فلم يجد أحدًا. لكن الأرض الطينية الباردة كانت تحمل آثار أقدام مبتلة، تبدأ من الممر، وتنتهي عند باب غرفته.

قال بصوتٍ متكسر: «من هناك؟»

جاءه الجواب من زاوية الغرفة المظلمة، همسًا مشقوقًا كأنه يمر عبر ماءٍ عميق: «افتح لنا يا أبي... البرد شديد.»

رفع المصباح نحو الجدار. لم يرَ أحدًا. لكنه رأى قطرات ماء تظهر على الطين، ترتسم كخطواتٍ جديدة، ثم تتبخر قبل أن تلمس الأرض. عندها فقط فهم أن الرعب الحقيقي لم يبدأ عند البئر، بل بدأ حين عاد معه إلى البيت.

الفصل الثالث: أسرار المخطوطة المحرّمة



كل بيتٍ قديم يخبئ شيئاً... لكن بعض البيوت تخبئ ما كان يجب أن يظل مدفوناً إلى الأبد.

لم ينم منصور في تلك الليلة إلا دقائق ممزقة، وكانت كل دقيقة منها فحاً. كلما أغمض عينيه رأى ابتتية في قاع البئر، لا تستجدان به، بل تنتظرانه. ومع أول خيط ضوء دخل من الشباك، نهض كمن اتخذ قراراً لن يعود عنه. إذا كانت القرية جنباً، فسيفتش في تاريخ دمه نفسه.

كان جده يُعرف بين الناس باسم «حكيم الوادي»، رجلاً يتحدث قليلاً، ويعرف كثيراً، ويغلق على بعض معارفه كما يغلق الناس أبوابهم وقت الريح. لطالما ظن منصور أن حكايات جده عن المورم ليست إلا وسيلة لتخويف الصغار. لكنه الآن بدأ يدرك أن بعض التحذيرات لا تُقال كي تُصدّق، بل كي لا تُجرّب.

دخل الغرفة القديمة التي هُجرت بعد موت الجد. رائحة التراب المخلوط بالجلد المعثّق استقبلته كأنها نفسٌ ظل حبيساً سنين. كانت البلاطات مشققة، والسقف منخفضاً، والهواء ثقيلاً بشكل غريب. وبينما كان يرفع صندوقاً مكسوراً من زاوية الغرفة، لمح أثر خدوش على الأرض؛ دوائر متداخلة ورمزاً شبيهاً بعينٍ مطموسة.

ركع وأخذ ينزع البلاطة واحدةً تلو الأخرى. تحت الطبقة الثالثة وجد لفافة جلدية ملفوفة بخيطٍ أسود متآكل. وما إن لمسها حتى أحس بوخز بارد يصعد في ذراعه. تردد للحظة، ثم فك الخيط.

انفرج الجلد اليابس عن كتابة متعرجة بلونٍ بنيٍّ قاتم. لم تكن الكلمات كلها واضحة، لكن ما استطاع قراءته كان كافيًا ليدفع الدم من وجهه.

«في قاع المورم سُجن الكيان الذي لا يموت. ولأجل أن تبقى الأرض خصبة، ويجري الماء في الجداول، عُقد معه عهد الدم. فإذا مرّ الزمان وعطش، وجب أن يأخذ روحين أو أكثر، وإلا خرج بما هو أشد من الموت.»

تابع القراءة ويداه ترتجفان. كان أجداد القرية قد حاصروا ذلك الكيان قبل ثلاثة قرون، وثبّتوه في البئر بخاتم من رماد وملح وحديد. لكن السجن لم يكن بلا ثمن. كلما ضعفت العلامات، كان المورم «ينادي» من يستطيع سماع النداء، وغالبًا ما يكونون الأطفال أو من رُقّ قلبه أكثر من اللازم.

همس منصور: «إدًا... لم تسقطا صدفة.»

وفي اللحظة نفسها، سمع خشخشٌ خلفه. التفت بسرعة. كانت الظلال على الجدار تتجمع ببطء، ثم بدأت تأخذ شكلين مألوفين. سارة. ليلي. لكن الوجوه لم تكن مكتملة، كأن شيئًا يحاول نحت ملامحهما من العتمة. اقتربت إحداهما خطوة، وقالت بصوتٍ متشقق: «اقرأ أكثر يا أبي... ستعرف الطريق إلينا.»

تراجع منصور حتى اصطدم بالحائط. «من أنتِ؟»

رد الشكل الآخر، بنبرة ليلي نفسها تقريبًا، إلا أن آخر كل كلمة كان يخرج كفقاعةٍ تغرق: «أنا الجوع... وأنا الصوت الذي يرتدي من تحب.»

سقط المصباح من يده، فتراقص اللهب على الأرض. عندها رأى ما لم يره من قبل: شقوق الجدران لم تكن عشوائية؛ كانت تمتد من أرض الغرفة في اتجاه الممر، ثم إلى سائر البيت، كما لو أن البيت كله صار جذرًا أسود متصلًا بالبئر. لم يعد المكان مسكونًا بالأشباح فحسب. لقد صار امتدادًا للبوابة نفسها.

عاد إلى المخطوطة يقرأً بجنون، حتى عثر على وصفيٍ لطقس كسر العهد. كان الطقس لا يعيد الزمن، ولا يضمن النجاة، لكنه يفتح لحظةً واحدةً يمكن فيها فصل الأرواح المأسورة عن الكيان إذا صُرب «حجر الأساس» الذي يحمل رمزه الحقيقي.

«وماذا لو فشلت؟» قالها منصور لنفسه، لا للمخطوطة.

كأن البيت سمعه. انطفأ المصباح فجأة، وارتفع ضحكُ خافت من نهاية الممر، ضحك طفلتين تلعبان. ثم جاءه همس جماعي من كل الجهات: «إذا فشلت... لن تبقى هناك قرية لتخاف.»

في ذلك الصباح، لم يعد منصور مجرد أب يبحث عن ابنتيه. صار آخر رجلٍ في الوادي يحمل في يده تفسير اللعنة، وفي قلبه مهمة قد تكلفه عقله أو روحه أو كليهما.

الفصل الرابع: طقوس الغسق الأخير



حين يضيق الليل على قلب الأب، لا يبقى بينه وبين الهاوية سوى اسم ابنتيه.

حلت الليلة التالية ثقيلة كأن السماء نفسها تحجم عن الاقتراب من وادي شُكع. اختفى القمر خلف سحب داكنة، وصار الهواء مشحونًا ببرودة لازعة تجعل الجلد يلسع من غير نار. وقف منصور أمام باب بيته يربط حقيبته الجلدية القديمة. في داخلها وضع ما طلبته المخطوطة: ملجأ خشبًا، رمادًا مقدسًا جمعه من موقد الجد، قطعة قماش كُتب عليها الرمز المعاكس، وخنجرًا قديمًا من فولاذٍ كالح لا يحمل نفسًا إلا خطأ واحدًا يشبه شقًا في العظام.

لم يودع أحدًا. لم يكن هناك من يودّعه أصلًا. فالقرية أغلقت أبوابها مبكرًا، وكأن الناس اتفقوا بصمت أن يتركوا الليل يأخذ ما يريد من رجلٍ اختار أن يذهب إلى المورم وحده.

عندما وصل إلى البئر، أحس أن الأرض حولها تنبض. لم يكن ذلك مجازًا! كانت الحجارة ترتجف تحت قدميه ارتجاجًا خفيًا منتظمًا، كأن شيئًا هائلًا يحاول النهوض من الداخل. نثر دائرة من الملح حوله، ثم رش الرماد عند الحافة، وفتح المخطوطة على آخر صفحاتها.

بدأ يقرأ الكلمات المحرمة بصوتٍ ثابت في البداية، ثم راحت الحروف تثقل في فمه، كأن اللغة نفسها تقاوم أن تُقال. تصاعد من فوهة البئر بخار أسود، ثم تبعته فقاعات لزجة انفجرت على السطح من غير ماء. ومع كل انفجار، كانت تتشكل وجوه: رجال، نساء، أطفال، أفواه مفتوحة في صرخة أبدية، وعيون منطفئة لكنها واعية.

شد منصور قبضته على الخنجر. «أنا لم آتٍ لأساوم.»

فاهتزت البئر، وجاءه صوتٌ عميق، لا يشبه البشر ولا الجن كما تتخيلهم الحكايات، بل يشبه صدغًا يتكلم من جوف جبل: «بل أتيتُ لأنك تعرف أنك ستساوم... كل الآباء يساومون.»

ظهر طيف سارة أولًا على الحافة المقابلة. كانت شاحبة، شبه شفافة، وعيناها ممتلئتين بحزنٍ لا تحتمله سنّها. ثم ظهرت ليلى إلى جوارها، أصغر من أن تكون روحًا، وأكبر من أن تكون مجرد ذكرى. قالت سارة بصوتٍ مرتجف: «لا تصدقه يا أبي.» وقالت ليلى: «هو يجعل الأصوات متشابهة... لكنه ليس نحن.»

ابتسم الظلام داخل البئر، أو هكذا حُيِّل لمنصور، لأن الضوء الأبيض في العمق انقسم إلى نصفين يشبهان عيين. وارتفع الصوت من جديد: «أعطني اسمك، وخذ ابنتيك. قفزنا إليّ فاحتفظتُ بهما. اقفز أنت، وأعيدهما تنفسان تحت شمس الغد.»

ارتجف قلب منصور. لثانيةٍ واحدة، رأى المشهد كما تمنى: سارة تفتح الباب عند الغروب، وليلى تركض في الفناء، والحياة تعود كأن شيئًا لم يكن. فكرة واحدة فقط كانت كافية لتخترق صلابته كلها. لكنه في اللحظة نفسها تذكر العيون الزجاجية، والهمس، وآثار الأقدام المبتلة، والبيت الذي صار امتدادًا للجوف الأسود. ما كان في البئر لا يعطي حياة؛ إنه يقلدها فقط.

صرخ منصور بكل ما بقي في رثيته: «لن آخذ منك نسخًا مزيفة ممن أحب!»

قرأ السطر الأخير من الطقس، ثم اندفع نحو الحافة الداخلية حيث لمعت على حجرٍ منخفض علامةٌ قديمة كأنها محفورة بالنار. عرف فورًا أنها الرمز الذي تحدثت عنه المخطوطة: حجر الأساس، المسمار الذي يثبت الباب بين العالمين.

وما إن رفع الخنجر حتى هاجت البئر كلها. خرجت أذرع من ماءٍ أسود أو دخانٍ متكتف، انتفخت حول ساقيه وخصره. سمع أصواتًا كثيرة تناديه باسمه، بعضها بصوت أمه، وبعضها بصوت جده، وبعضها بصوت ابنتيه. قالت ليلى، أو من بدا كليلى: «اقترب أكثر يا أبي... نحن هنا.» وقالت سارة، أو ما لبس ملامحها: «لا تؤلمنا.»

أغْمَضَ عَيْنِيهِ لِحِظَةٍ، وَالدَّمُ يَنْزِفُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ الَّتِي شَقَّتْ فِيهَا حَافَةَ الْخَنْجَرِ. ثُمَّ قَالَ فِي دَاخِلِهِ:
«سَامِحَانِي إِنْ أَخْطَأْتُ الطَّرِيقَ... لَكِنِّي ذَاهِبٌ فِيهِ حَتَّى النِّهَايَةِ.»

فَتَحَ عَيْنِيهِ وَغَرَسَ الْخَنْجَرَ فِي الْحَجَرِ.

صَاحَتِ الْبُئْرُ. لَا، لَمْ يَكُنْ صَوْتًا وَاحِدًا؛ كَانَتْ صَرْخَةٌ طَبَقَاتٍ فَوْقَ طَبَقَاتٍ، صَرْخَةٌ كَأَنَّ الْقُرُونِ كُلَّهَا
تَكْسَرَتْ دَفْعَةً وَاحِدَةً. تَشَقَّقَتِ الْحَجَارَةُ، وَارْتَفَعَ اللَّهَبُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْعَمَقِ، بَيْنَمَا أَخَذَتِ الْأَطْيَافُ تَدْوِيرَ
حَوْلٍ مَنْصُورٍ فِي إِعْصَارٍ مِنَ الرَّمَادِ وَالْمَلْحِ وَالصَّوْتِ.

الفصل الخامس: تحرر الظلال



ليس كل انتصار عودة، لكن بعض الانتصارات تمنح المفقودين بابًا أخيرًا إلى النور.

مع الطعنة الأخيرة، لم انفجر المورم بالماء كما تفعل الآبار، بل انفجر بضوءٍ أبيض هائل شقَّ قلب الظلام. تناثرت الحجارة البركانية في الهواء، وتراجعت الأشجار كأن عاصفةً مرئيةً ضربتها في لحظة واحدة. أُلقي منصور إلى الخلف بقوةٍ حادة، فارتطم بالأرض ولم يشعر بعدها إلا بطين بعيد، يشبه نهاية صرخةٍ لا تريد أن تموت.

في تلك اللحظة الفاصلة بين الوعي والغيوبة، رأى ما لم يكن يرى من قبل. لم تعد الأرواح وجوهًا مطبوعة على الفقاعات السوداء، بل صارت خيوطًا من نورٍ باهت ترتفع من قلب البئر وتتجه إلى السماء. مئات... ربما آلاف. رجالٌ ونساءٌ وأطفال من عصورٍ متباعدة، وكل روح تحمل دهشة التحرر أكثر مما تحمل الألم. وبينها لمح سارة ولىلى. لم تكونا غارقتين ولا مذعورتين هذه المرة. كانتا خفيفتين كنسمةٍ أولى بعد مطر طويل.

ابتسمت سارة. ورفعت لىلى يدها الصغيرة كما لو كانت تلوّح من آخر الطريق. حاول منصور أن ينهض، أن يمد يده، أن يحتفظ بالمشهد ثانيةً واحدة أكثر، لكن جسده خانه، وسقط في السواد الرحيم للإغماء.

حين فتح عينيه، كان الصباح قد بدأ يتنفس فوق وادي سُكع. العصافير عادت إلى أصواتها الخجولة، والضباب صار أخف، والبرد الذي ملأ الليل اختفى كأنه لم يكن. نهض بصعوبة، وسار مترنحًا إلى حيث كانت البئر.

لم يجد بئرًا.

وجد كومةً من حجارةٍ سوداء مكسّرة، وحفرةً ردمتها الأرض جزئيًا، ومساحةً هادئةً من التراب تبدو صالحة للزراعة أكثر من أي بقعة في الوادي. كان المشهد بسيطًا إلى حدٍ مؤلم؛ كأن المكان قرر أن يدفن سره أخيرًا، وأن يتظاهر بأنه لم يعرف الرعب قط.

بحث بعينه عن أي أثر لبنتيه. خصلة شعر. قطعة قماش. أثر قدم. لم يجد شيئًا. فقط النسيم. ثم جاءه الصوت، خافتًا جدًّا، حتى إنه ظن أول الأمر أن قلبه يترجمه من شدة التعب.

«شكرًا يا أبي... نحن الآن في مكانٍ لا ماء فيه ولا ظلام.»

جثا منصور على ركبتيه. لم يبك بصوتٍ عالٍ. خرجت دموعه في صمت، كما يخرج الماء من عينٍ حجبها السنون ثم انشق عنها الحاجز. بقي طويلًا هناك، يلمس التراب، ويستمع إلى الفراغ، ويقبل أخيرًا تلك الحقيقة التي لا تُحتمل: أنه لم يعد قادرًا على استعادة ابنتيه إلى الدنيا، لكنه أنقذهما من البقاء في الجوف الذي يبتلع الأسماء والوجوه والصلوات.

عادت القرية إلى حياتها شيئًا فشيئًا، لكن أخبار ما جرى انتشرت بأكثر من رواية. بعضهم قال إن منصور هدم البئر. بعضهم قال إن البرق ضربها. وبعضهم أقسم أنه رأى في تلك الليلة أعمدة نورٍ تصعد من الوادي نحو السماء. أما منصور فلم يصح شيئًا، ولم ينفِ شيئًا. كان يعرف أن الحقيقة أوسع من قدرة الناس على التصديق.

ظل في سُكع، لم يغادرها. وصار يذهب كل صباح إلى موضع البئر، يجلس عنده ساعات، يحمل فأسًا أحيانًا ليقلب التراب، أو كيس بذور لينثره في الأرض التي استعادت نفسها. بعد مواسم قليلة، نبت في المكان عشبٌ أكثر خضرة من سائر جوانب الوادي، كأن ما تحرر هناك ترك خصوبته الأخيرة هديةً للأحياء.

ومع مرور الزمن، أصبحت الحكاية أسطورة حزينة يتناقلها الناس في الليالي الباردة: قصة الأب الذي نزل إلى حافة الهلاك، ولم يعد بابنتيه، لكنه عاد باللجنة مكسورة. وكان الأطفال إذا سألوا عن المورم، يشير الشيوخ إلى البقعة الخضراء ويقولون: «هنا كان الفم الأسود. وهنا أيضًا وقف رجلٌ واحد في وجهه.»

أما منصور، فكلما هبّ نسيم خفيف عند الفجر، وحزّك سنابل العشب فوق المكان، كان يرفع رأسه قليلاً، ويتسم ابتساماً صغيرة موجهة، كأنه ما زال يسمع بين حفيف الأرض صوتين بعيدين يناديانه للمرة الأولى من غير خوف.

وهكذا تحوّل الرعب إلى ذكرى، والذكرى إلى حراسة، والحراسة إلى عهدٍ جديد: ألا يُدفن الشر في قلب الأرض من دون أن يُكتب اسمه، وألا يُترك الأطفال وحدهم مع الأساطير التي تبدو صامتة، فيما هي في الحقيقة تصغي.